الحجاج والحق في الذاتية

خالد زكري

ترجمة : جعفر عاقيل

تستعمل الذاتية في هذا المقام بصفتها تعبيرا عن فردانية مفكرة وفاعلة بطريقة مستقلة، إلا أنها في تفاعل دائم مع جماعة معينة . وبناء عليه، فإنها تحيل على إثبات ذات تبني معانيها استنادا إلى الأسنن التي يقوم عليها المجتمع الذي تتطور داخله (قلو يكون ضد هذه الأسنن). إن الأمر يتعلق بإمكانية تشكل الذات بوصفها مبدأ للمعنى ، وباعتبارها كيانا حرا قادرا على شق مسيره الخاص . وينظر إلى الذاتية استنادا إلى الأبعاد السياسية والاجتماعية والثقافية التي تتضمن لها التجذر في المجتمع. إن هذه الأبعاد هي التي تحدد فاعلية الذات في علاقتها بالفاعلين الآخرين.

ويتضمن حجاج مقولات متعددة تعود إلى خطاب هدفه البرهنة أو الإقناع . إن الحجاج هو طريقة ندافع بها عن موقف يتعارض صراحة أو ضمنا مع من يفكرون تفكيرا مغايرا لتصورنا. وبذلك تنجلي العلاقة التي تربط مابين الذاتية والحجاج :فالحجاج ينخرط بدوره في سيرورة التذييت، وذلك بإعطاء الفرد إمكانات بناء تفكيره الخاص بطريقة منسجمة أمام تنوع الأفكار المقترحة في سوق الثروات الرمزية.

وظيفتان مهيمنتان:

حين ننتج خطابا حجاجيا من غير توجيهه إلى « خصم » محدد، فإننا نسعى بذلك إلى إعاقة انضمام المستمع أو القارئ إلى مواقف الخصم وحين نتوجه مباشرة إلى الخصم، فإننا نود آنذاك إسكاته من غير أن نجهد أنفسنا في الطريقة الملائمة لإقناعه. انطلاقا مما سبق يمكن القول، إن للحجاج وظيفتين مهيمنتين على الأقل:

- **وظيفة إقناعية** : فحينما أجتهد في إقناع مخاطبلو قارئ ليشاركني جهة نظري ، وأستنجد بأحاسيسه (أقنع) أو عقله (أفحمه)، فإنني أدحض، في الوقت نفسه، حجج الأطروحة النقيض وذلك بإظهار نواقصها في الحجة أو ضعفها.

- **وظيفة سجالية** :حين أجعل هدفي الأساس هو السخرية من للذي أو الذين لا أشاطرهم الرأي؛ يمكن، حينئذ، تصور الأشكال العنيفة التي ستنجم عن حجج الخصم ، شرط أن نكون قد قبلنا بأطروحته. و يمكن، بكل ببساطة أن نحبس أطـــــروحة الخصـــم في مأزق.

يخضع الحجاج في بنائه إلى مجموعة من القوانين؛ منها ما يعود إلى المنطق ومنها ما يعود إلى البلاغة.فحين أحاجج، فإنني أعلن من خلال الأفكار التي أعبر عنها، عن قناعتي، ولهذا السبب أكون متورطا في خطابي من خلال نسقه التلفظي.

إن استعمال ضمير المتكلم هو مؤشر على حضوري في الأقوال المعبر عنها . انطـــلاقا من اللحظة التي يصيـــر فيها ـــا هذا الحضور قويا (أو هو خاضع إلى مبادرتي باعتباري متكلما) يصبح قولي الحجاجي منتميا إلى خطاب أعلن عن ذاتي، إذن، م ـــن خلال استعمال ضمير المتكلم والمخاطب وكذا عبر الحضور البارز لرأيي هكذا أجد نفسي، بالمناسبة نفسها، في س ـــــيرورة تذييتية. ويمكن إقامة خطاب حجاجي يتخذ مظهرا موضوعيا إذا ما اكتفينا بالإخبـ ـار أو الشرح؛ وهو ما سي ـــحدث عنـــد استعمالي للضمير الغائب والجمل الإخبارية قصد حجب نيتي في الإقناع . وتعتبر صيغة الحاضر اللازمني، الصيغة المألوفـ ـــــة في الخطاب الحجاجي، إذ إن الحجة مقبولة بطريقة إجمالية. إن انتقاء المعجم بوصفه م ؤشرا لدرجة اليقين يكشـ ـــف أيضا عن حضور ذاتيتي في الخطاب؛ بدءا بالتأكيد الجازم الذي يثبت بأنه لا وجود لمحتمل.وتستعمل آنذاك مصطلحات مثل « قطعا» و«بدون أي شك » و«من المحقق أن » و«دائما» و«أبدا »، الخ.كذلك، يمكن استعمال أسلوب الحيرة الذي يحاول ، أو يبدو أنه يحاول،عدم إلزام المخاطب بشيء،وتستعمل آنذاك مصطلحات كـــ « ربما» و«لعل»،الخ. أعلن بكل يقين أنني على حق حين أوظف الحجاج،فأستعمل عبارات تترجـ م وعدي القاطع وثقتي في أفكاري ك «على الأرجح» و «بالتأكيد» و« لا ريب فيه» ، الخ. كذلك تظهر قناعتي بأنني على حق حين أستعمل الأفعال الإلزامية. إن كل هذه الآثـــــار لحكمي الشخصي يطلق عليها صيغ كيفية.

إن استعمالي المعجم العاطفي من خلال محاولة استمالـ ـــة تعاطف أو احترام الجمهور هو تأكيد لذاتيـــتي في اللغة ، مع الحفاظ دائما على قصديتي المحمودة. وقد أستعمل لهذا الغرض مجموعة مـــن المصطلحات جديرة بإبراز إحساسي وصدقي وارتباطي بالأطروحة المعروضة.

وأخيرا تظهر الذاتية من خلال الإيحاءات التي تشير إلى حكم القيمـ ـــة : وهي إيحاءات إيجابية بالنسبة لجهة نظر المدافع عـــنها وسلبية بالنسبة لجهة النظر التي ترفضها.

التكيف مع المرسل إليه

إن الغاية من الخطاب الحجاجي هي التأثير في المرسل إليه، ومن ثم يتعين علينا معرفة هذا المرسل إليه وبناء ترسانةالحجاجية تبعا لما نعرفه عن مزاجه . وقد يعود تكييف اللغة وفق ألأهواء المستمع في بعض الأحيان إلى المناورة؛إنها حالة الخطابات السياسية والدوغمائية التي يتكيف فيها الحجاج مع آفاق انتظار المحاورين من أجل تضليلهم .يتوقف اختيار الحجج على معرفة ذه نية المرسل إليه موضوع الإقناع وأحاسيسهوقد نستعمل للإرضاء والبرهنة ، وكذا إثارة اهتمام المستمع أو القارئ، أساليب بلاغية وأسلوبية مثل :

-الاستعارة التي تعدى الزخرفة فتصبح أدا ة إقناعيةحقيقية تحول ملفوظا مجردا إ لى سجل مجازي ومقبول لدى القارئ، وذلك بتبسيط حالات لا تقدر على الاستمرار في مقاومة التحليل.

-المثال الذي يقد م مقطعا من حكاية في خطاب مجرد ويساعد على الفهم بتجلية للفكرة وجعلها أكثر قيمة. إن وظيفة هذه الأمثلة هيدعم رأي أ و حقيقة ذات طابع عقلي بطريقة ملموسة وسهلة في التناول. إنهم يعززون الحجة المنطقية بوصفها تزيينا.

- الحكاية التي تسهم في قبول الكلام تتقاطع فيها قصديات .....بمنح الحجاج مصداقية بإظهار أثره في قصة حية في حكم واقعة حقيقية.

- التكرار (إعادة استعمال لفظ أو جملة بإيقاع منتظم) الذي يحدث لازمة دلاليةأو رنانة من أ جل إثارة الانتبـــاه حول فكرة أساس.

- المدة (الجملة الطويلة لكن الموزونة بوقفات جزئية) التي تجعل للخطاب إيقاعا و سعة لترجمة مدى قوة يقين المتكلم.

- النقيض (الجمع بينألفاظ متقابلة المعنى)الذي يدل عل ى نغمة سجالية متنقلة غالبا بين حقلين معجميين متضادين لتمتين أطروحته وتلك التي يحط من قدرها لتقوية رأي المتكلم بفعل التباين .

- زمن أفعال الخطاب النمطية الأفعال.

اكتشاف الحقيقة بواسطة الحجاج

بما أنه لا توجد حقيقة واحدة وإنما حقائق ، فإن أحسن طريقة للتأثير الحجاجي في المرسل إليه، هو جعله يشارك في اكتشاف الحقيقة التي نود إقناعه بها .وإذا كان المخاطب متشبثا بقناعاته، فإن استعمالخطاب الإضراب والتنازليفرض نفسه آنذاك من أجـــل الإنصاف مرحليا، و رفض أطروحة

الخصم ذلك باستعمال حجج مضادة . فالحجج المضادة تبطل أو ترجح الحجة ضد « الخصم». وتأخذ هذه الطريقة في الحجاج بعين الاعتبار حـ ـــب الذات عند المخاطب الذي يزداد تصلبا في مواقفه حين نشرع في دحضها كما تسهم الحجج المضادة في تغيير رأي المخـ ـلطب وذلك بجعله يحـ ـــس ضمنيا بأن هذا التغيير هو من محض مبادرته؛ وذلك بخلاف الحجج السلطوية التي تنتج ما يمكن تسميته بنقيض - العـــــلة لأن طريق الحجة السلطوية في الإقناع لا تتم بالعقل ولكن من خلال ممارسة الضغط على المخاطب إن الحجة السلطوية هي فعـ ـــلا تأكيد مقدم إلى المخاطب بوصفه حجة جديرة بالثقة . إن الاستشهاد بشخصية معتبرة في مجالها أو بمثل سائر وهو المكان المشترك للحكمة الشعبية، سيكون هدفه هو تقوية الحجة إن لم يقم مقامها.

عندما نريد تبليغ الحقيقة التي يشتمل عليها خطابنا، فإننا نخاصم خطاب الآخر بالضرورة . ومادامت الحقيقة دائما نسبية فإن النص الحجاجي سيظل بدوره يلبس شكل أطروحات متصادمة؛ من هنا يكمن ورده في إيقاظ نزاع الذاتيات . فيصبح الحجـــاج سجاليا بالمعنى الاشتقاقي (لكلمة بوليموس polemos التي تعني في اليونانية الحرب). هكـذا نقدم أطروحتنا بطريقة متحـ ـــيزة وكذا محاباتها باستعمال معجم مؤثر ونعوت مدحية وتفضيلية واسمية ثم أفعال بإيحاءات إيجابية .وتخضع في المقابل، أطروحة الخصم لمصير قاسي يصل أحيانا إلى السخرية . لقد استعمل هذا الحجاج كثيرا من لدن فلاسفة القرن الثامن عشر من أجل فضح تجاوزات عصرهم . فكانوا يحتقرون خصمهم متظاهرين بإطرائه ومدحه ليملي المستمع أو القارئ مع مطالبته بالتواط ؤ يسمح الحجاج للفرد بلوغ وضـ ع ذات من خلال إمكانية صنع وجوده الذاتي :فالذات هي « الخاصية المبدعة لفعل الإنسان»هانس جواس Hans Joas. ويمنح الحجاج الفرد إمكانية نحت ذات فريدة قادرة على صياغة اختياراتها ومقاومة الأفكار المهيمنة التي تتخذ أشكالا مختلفة: اقتصادية وسياسية وجماعية ودينية ثم تيكنولوجية.